المقدمات الشرطية لحداثة عربية ناجحة
قراءة في رؤية فتحي التريكي

د. محمـد بـن علي[1]

أ) مدخل:

خرجت الحداثة كرؤية جديدة للعالم، من رحم التحوّلات الكبرى التي شهدتها أوربا العصر الحديث. فلقد أسفر انحلال الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية، في القرون الوسطى إلى استشراء قدر عظيم من الفوضى والاضطراب، حال دون بلورة نظرية متسقة عن المجتمع المدني.لكن هذا الوضع المتسم بالركود سرعان ما دبّ فيه تطور جديد، أدى في النهاية إلى قلب الأوضاع قلبا تاما، وذلك بظهور النشاط التجاري في أوروبا، ونمو الطبقة البرجوازية والتجارية، وتغلغلها في المجالات السياسية والاقتصادية، ووقوفها "أمام العقبات والقوانين الإقطاعية التي كانت تقف حائلا بينهم وبين ممارسة نشاطهم. وهكذا أخذوا يطالبون برفع جميع القيود، التي تثقل الحياة الاقتصادية"([2])، وبمعنى آخر، أنه بعد أن تغيرت العلاقات الإنتاجية، التي تشكل البناء التحتي، أخذت البرجوازية في تغيير البناء الفوقي السياسي والقانوني، الذي كان يتعارض وطموح هذه الطبقة، المقبلة على الحياة بنظرة إيجابية، جاعلة الإنسان وسعادته محور النشاط البشري، عكس النظرة القروسطية السلبية اتجاه الإنسان.

لقد أصبحت فلسفة الحداثة خلال القرنين 18و19م، النموذج والقاعدة الأساسية للذهن الغربي، وامتدت تأثيراتها لبقية الشعوب، ومن ثمّ يمكن القول إن جذور الحداثة في الفكر العربي، تعود في أساسها إلى هذه الفلسفة، فغالبا ما يؤرخ للحركة الفكرية العربية الحديثة بالقرن 19م، ففي هذا القرن بدأ العالم العربي – بداية من مصر – الانفتاح على أسباب الحضارة، والتعرف على وسائل التقدم الإنساني، وعقد مقارنات بين مكانته وما وصل إليه غيره في أوروبا.

هذه المقارنات طُرِحَت، بصيغة أو بأخرى، على المثقف العربي منذ ما يزيد عن قرن ونصف من الزمن، وظفرت منه، عبر هذه المرحلة التاريخية، بإجابات ومعالجات، تفاوتت في وضوحها وعمق تحليلها، ونضج نتائجها، تفاوتا يتناسب وحركة تطور التاريخ الاجتماعي والسياسي العربي، تماشيا مع تطور معارف المثقف العربي ووعيه بحركة التاريخ الإنساني، وبالواقع الثقافي والحضاري، القومي والعالمي السائد في كل مرحلة.

واليوم يعالج المثقف العربي المسائل والإشكاليات التي تطرحها قضية الحداثة عليه ؛ كمسألة الهوية الثقافية، ومسألة الأصالة، وإشكالية الخصوصية والعالمية والتعددية...الخ، بشكل لا يكاد يخرج عن

---

[1] أستاذ محاضر المركز الجامعي غليزان، البريد الإلكتروني: falsafa20@yahoo.fr

[2] عبد المنعم رمضان، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث،ج1،الهيئة المصرية العامة للمكتبات (ب ط)،1997،ص16

ذلك الشكل، الذي ألفناه عند أسلافه. انطلاقا من المعارف التي يتيحها الواقع التاريخي والمناخ الثقافي والحضاري، العربي والعالمي الراهن.نطلاقا من هذه المقدمة، سوف نعرض بالتحليل لرؤية المفكر العربي فتحي التريكي، باعتباره أحد أبرز المفكرين العرب، الذين اشتغلوا على مسألة الحداثة، وشروط توطينها في البيئة العربية الإسلامية.

ب) ضبط مفاهيم الدراسة:

1)-مفهوم الحداثة:

من الصعوبة الوصول إلى ضبط مفهوم دقيق للحداثة، إذ ليس هناك اتفاق، بين المفكرين حول طبيعة ومكونات الحداثة، لأن الحداثة ليست مفهوما سوسيولوجيا أو تاريخيا، بحصر المعنى، وإنما هي صبغة مميزة للحضارة، تعارض صبغة التقليد، أي أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية.ورغم ذلك سوف نحاول إعطاء مقاربات للمفهوم، تقربه أكثر للقارئ.

أ)-مفهوم الحداثة للغة:

كلمة الحداثة في اللغة العربية مشتقة من الجدر(ح-د-ت)، و"حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة، فهو محدث وحديث وحدث الأمر، أي وقع وحصل وأحدث الشيء أوجده، والمحدث هو الجديد من الأشياء([1]).وعليه فالحداثة في اللغة العربية ترادف الجدة والتجديد.

أما في اللغة الفرنسية فان الصفة حديث moderne، أقدم تاريخيا من اللفظ حداثةmodernité.وكلمة حديثmoderne تقابلها في اللاتينية modernus، التي تظهر ظهرت في أواخر القرن الخامس بعد الميلاد، وتأتي من كلمة(modo)، التي تعني الآن أو حالا، وقد استعملت بهدف التمييز بين الماضي الروماني الوثني والحاضر المسيحي، الذي لم يكن قد مضى زمن طويلا على الاعتراف به رسميا.

ب)-مفهوم الحداثة في الاصطلاح الفلسفي:

من الصعوبة الوصول إلى ضبط مفهوم دقيق للحداثة، إذ ليس هناك اتفاق بين المفكرين حول طبيعة ومكونات الحداثة، لذلك سنحاول تلمس الملامح العامة للحداثة من خلال بعض النماذج. حيث يقول:"جون بودريار" ليست الحداثة مفهوما سوسيولوجيا أو تاريخيا بحصر المعنى، وإنما هي صبغة مميزة للحضارة تعارض صبغة التقليد، أي أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية، فأمام التنوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات، تفرض الحداثة نفسها وكأنها واحدة متجانسة مشعة عالميا، انطلاقا من الغرب. ويتضمن هذا المفهوم إجمالا الإشارة إلى التطور التاريخي بأكمله([2]).بينما برى فتحي التريكي أن "الحداثة

---

[1])ابن منظور ،لسان العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، مادة:حدث، مج4، ص52

[2]) فارح مسرحي،الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف،الجزائر ،والدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، ط1، 2006، ص21

هي الحالة الناتجة عن تطور زمني يسمح للوضع القائم المتجدد تلقائيا أن يعبر بشكل أو أخر عن روح العصر عن الحضور، حضور الأنا "في الهنا و ألان على صعيد الإبداع الفني والعلمي والثقافي عامة".33، فالحداثة في بعدها الفلسفي،مثلت خلاصة لاستنفاذ المخيال الأسطوري والرمزية الدينية والفنية، لإرساء قواعد للخطاب، ومعايير تصبو إلى الابتعاد عن الذاتية، لتأسيس القول من خلال آليتها،

التي اتبعها العقل في عملية إقصاء للخيال وللامتجانس واللامعقول، فالحداثة الفلسفية قامت على محوري انفصال.محور يربط المعرفة بالذات، ومحور يربط الوجود بالسلطة، ينفصل الفكر في المحور الأول عن نظام أرسطي مسيحي للمعرفة، ليعود إلى معطيات طوّرها أفلاطون، وينفصل الفكر في المحور الثاني عن الثنائيات التي تخبط فيها العقل، لإقرار المتجانس وإبعاد اللامتجانس ([1]) ، وهو الفعل الذي لم يتم في الفضاء العربي الإسلامي كما يرى الدكتور عبد الإله بلقزيز" (ف)مفهوم (الحداثة) كما دخل في المجال التداولي العربي، لا يعني مفهومه في الفكر الغربي. إنّ الفوارق بين المفهومين واسعة. فالحداثة Modernité، هي الرؤية الثقافية والفلسفية الجديدة للعالم، أمّا التحديثModernisation، فهو فاعلية سياسية واجتماعية، تروم تطوير بُنَى المجتمع والسياسة والاقتصاد. بحيث تلائم مستوى التحوّلات الطارئة على صعيد الزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية والحاجات.وهنا يتعلّق الأمر بسياسات و إجراءات مُخطّط لها تحقّقها الدولة" ([2]).

2)-الأسس الفكرية والفلسفية للحداثة الغربية:

أ)-الأسس الفلسفية:

لقد عرفت حضارة الغرب طريقها نحو التقدم، حينها تخلصت من أوضاع سياسية واجتماعية وثقافية راسخة، فرضتها هيمنة الكنيسة والنظام الإقطاعي، لقد مزقوا الإنسان في العصور الوسطى: فسلبت الكنيسة الفرد عمله وشلت إرادته، ولم تعترف له بمكانته في الفكر، فكانت لا ترى سوى نظام إلهي مطلق، يعمل النّاس في حدوده طبقا لمبدأ محدد سلفا، لكن هذا الوضع المتسم بالركود، سرعان ما دبّ فيه تطور جديد ـ وخطير في الوقت نفسه- أدى في النهاية إلى قلب الأوضاع قلبا تاما، وذلك بظهور النشاط التجاري في أوروبا، ونمو الطبقة البرجوازية وتغلغلها في المجالات السياسية والاقتصادية، ووقوفها" أمام العقبات والقوانين الإقطاعية، التي كانت تقف حائلا بينهم وبين ممارسة نشاطهم.وهكذا أخذوا يطالبون برفع جميع القيود التي تثقل الحياة الاقتصادية"([3]). بمعنى آخر، إنه بعد أن تغيرت العلاقات الإنتاجية، التي تشكل البناء التحتي، أخذت البرجوازية في تغيير البناء الفوقي، السياسي والقانوني، الذي كان

---

[1]) فتحي التريكي ،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة،مركز الانماء القومي،بيروت لبنان،ب،ط،1992،ص77

[2])حوار مع د.عبد الله بلقزيز حول :كونية الحداثة و نسبيَّتها -أجرت الحوار: رشا الجديدي . المغرب نقلا عن موقع:
http://tareekelnajeh.blogspot.com/2009/02/blog-post_2409.html تاريخ الزيارة 2011/10/10

[3])عبد المنعم رمضان، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث،ج1،الهيئة المصرية العامة للمكتبات،(ب ط)،1997،ص16

يتعارض وطموح هذه الطبقة المقبلة على الحياة، بنظرة إيجابية، جاعلة الإنسان وسعادته محور النشاط البشري، عكس النظرة القروسطية السلبية اتجاه الإنسان.

ب)-الأسس الفكرية:

1)- الفردية:

تشدّد الحداثة على القيمة العليا للفرد، فالمجتمع والدولة، ليس لهما وجود مستقل، أو قيمة في ذاتها، بل هي مجرد نتائج يسفر عنها وجود الأفراد، مرتبطين ببعضهم بطريقة معينة، والليبرالية تعتمد في رؤيتها هذه، نظرة خاصة للإنسان، تتّصف بكونها ذرية Atomiste أو تفتيتية، حيث تردّ المجتمع إلى أفراده المكونين له، وتنظر إلى هؤلاء الأفراد على أنهم ذات مستقلة عن بعضها.

هكذا قُوضَت، دعائم الرؤية الإقطاعية، التي ساد خلالها إدراك للفرد، باعتباره ليس لديه مصالح خاصة به، أو هوية منفردة، فكان ينظّر للناس، باعتبارهم أعضاء في مجموعات اجتماعية، ينتمون إليها كالأسرة والقرية، والمجتمع المحلي أو الطبقة الاجتماعية، فحياتهم وهويتهم، كانت تتحدد بدرجة كبيرة،

بحسب صفات تلك المجموعات، وذلك في عملية تغير طفيف،من جيل إلى آخر، وعندما انهار النظام الإقطاعي، واجه الأفراد نطاقا أوسع من الخيرات، والإمكانات الاجتماعية، وأتيح لهم لأوّل مرة التفكير الفردي المطلق، وبشكل شخصي بحت ([1]).

2)- الحرية:

إن قوة الحداثة متأتية، من كونها تطالب بالحرية للجميع، بلا استثناء، رجالا ونساء، وبالاعتراف المتبادل بهذه الحرية. ومن شأن هذا التوجه-من حيث المبدأ على الأقل-أن يدفع الناس إلى الثقة بالحرية، بدلا من الخوف والحذر منها، فتنطلق المبادلات والأنشطة في جميع الميادين، تحقيقا لأقصى ما يمكن تحقيقه، في الواقع المتغير من قدرات الأفراد، و طموحاتهم و مصالحهم.

من الواضح أن الحرية لم تطرح كفكرة، بل نسجلها كظاهرة طبيعية، تابعة لوجود الفرد على وجه الأرض.وهكذا تنزع الحرية من مجال السجلات الفلسفية، لتوضع في حيز السياسة التطبيقية والاقتصادية، أي في نطاق التاريخ والتطور، لأن الفرد يملك بموجب قانون الطبيعية، سلطانا مطلقا على ذاته، له حقوق كاملة ودائمة، تتعلق بالاعتقاد والرأي وبالكسب والملكية، "هذه الحقوق التي لا تقبل التفويت إطلاقا، تسمى حريات شخصية أو إنسانية:كلما مست فقد المجتمع صفته الإنسانية، لأنه أصبح يناقض الطبع والعقل" ([2])

ولا شك أن وعي الإنسان بحريته، يقوم كما يرى فلاسفة التنوير، على وعيه بنفسه كذات هي المصدر الأسمى لكل حقيقة، ولذلك فإنه سيكون، في نظرهم، مشرع نفسه، من حيث هو ذات قادرة على

---

[1])نقلا عن: هبة رؤوف غزت،(الليبرالية،إيديولوجية مراوغة أفسدها رأس مال)، أنظر الموقع:www.heba_ezzat.com.

[2])عبد الله العروي،مفهوم الحرية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط2008،4،ص61

خلق المعايير والقيم من جهة، وإخضاعها للمراجعة والنقد من جهة أخرى، فالتفاعل الحقيقي بين مفهوم الحرية وممارستها داخل كل المجتمع، هو الذي يعطيها إيجابية قصوى، ويجعلها تسكن بسهولة كل مجتمع.

إن الحرية هي الحق بأن لا يخضع الفرد في المجتمع إلا للقوانين العامة .بمعني أنه على المجتمع أن يضمن كرامة المواطن، فلا يمكن اعتقاله واسجنه أو قتله، أو تعذبيه من قبل إرادة اعتباطية لفرد ما، سواء كان هذا الفرد في أعلى هرم السلطة، أو في أسفله ،أومن قبل قرار اعتباطي لمجموعة من الأفراد "([1])

3)-العقلانية:

ارتكزت الحداثة كرؤية جديدة للعالم، في القرن الثامن عشر، إلى الإيمان بالعقل البشري وقدراته في المجالات العلمية والعملية؛ أي الإيمان بأن مبادئ العقل، هي التي يجب أن يقوم عليها بناء الجماعة الإنسانية في مختلف ميادينها :سواء في السياسة أو في الأخلاق أو في المعتقدات أو في النظرة الكونية،

فلقد أحدث ديكارت تحولا كبيرا في صيرورة الفكر الغربي، حيث أكد على اعتبار العقل الأداة الأساسية لاكتساب المعرفة، والملكة التي تعطي للكائن قيمة، وافترض بتأكيد ثقته في العقل، استبعاد كل ما يشوش عمله، والتقليل من أهمية ما لا يستجيب ضرورة لمقتضياته وضوابطه، واعتبر المخيلة سيدة الخطأ والضلال؛ فكان بذلك، أول من شرّع باسم العقلانية، لإقصاء المخيال من الفعل الإبداعي الإنساني، باعتباره كائنا عاقلا لا غير. وهذا يعني، كما يقول فتحي التريكي، اقتران الحداثة في نمط تكوينها وفي نمط عملها بالعقل.

لقد لعبت العقلانية دورا هاما، في التركيز على أهمية الفرد، وقدرته على كشف خبايا العالم، فالعالم من وجهة نظر العقلانية، لديه تكوين منطقي، يمكن كشفه من خلال الممارسة العقلية للفرد. والعقلانية هي مفتاح ما تلاها من تحولات عميقة، وقطائع ابستمولوجية، في البنية المعرفية للعقل الغربي عموما، وذلك بتطوير المعارف، وتقليص المجالات الغامضة والمبهمة، في العلاقات التي تربط الإنسان بالوجود، وقد تجلى ذلك بداية ب:

أ)-عقلنه القول التاريخي: أي" بإعادة قراءة التاريخ العالمي، قراءة تضع الوعي الغربي كوعي مؤسس مستفيدة من أطروحات عصر النهضة الذي أكد على:

[1]) فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية،الدار المتوسطية للنشر،تونس،ط2009،1 ،ص149.

1)-"العودة القوية إلى الحضارة اليونانية واعتبارها نقطة انطلاق العقل الأوروبي،" فالبحث في الذات الغربية من خلال العودة إلى العلوم والفلسفة الإغريقية، يعني إثبات العقل ودحض التقاليد الكنسية"([1])

2)- بداية الوعي بضرورة الوحدة الغربية، بتوحيد المملكات والإمارات داخل أوطان أوسع(نموذج الوحدة الايطالية مثلا) .

ب)- عقلنة الفكر السياسي: بدأت هذه العقلنة منذ أفلاطون وأرسطو، أي عندما بدأ المفكرون يقترحون نظما سياسية مبنية على نواميس، قد استنبطها التفكير العقلي والفلسفي. لكن الفكر السياسي لم يتحرر ليعقلن مناهجه، عقلنة علمية إلاّ مع ميكيافلي في القرن الخامس عشر. فالحداثة على المستوى السياسي، تجلت في نشأة الدولة الديمقراطية العلمانية، أي الدولة التي تم فيها التمييز بين المجال السياسي والمجال الديني([2]).

حيث تعد إسهامات ميكيافلي في الفلسفة السياسية، بمثابة نقطة تحول، في رسم معالم العلمانية الأوروبية.إنها بداية لحظة الانفصال، بين المدني، الدنيوي، النسبي وبين الكنسي الديني.من هنا أصبح لفظ العلمانية، يطلق في بداية الأمر"للإحالة على العالم الخارجي، الواقع خارج الفضاء الكنسي، وما يطبعه من روح دنيوية مادية، ومن ثمّ اتسعت دلالة الكلمة لتشمل كل المؤسسات الدنيوية، المعنية بالمسائل المدنية الزمنية وشؤون عامة الناس، تمييزا لها عن المؤسسات والهياكل الدينية، الموصوفة بالروحية والقدسية.

ج)-عقلنة القول الديني: وتعنى " التدخل في جميع مستوياته بدقة لإصلاحه"([3])، حيث كانت بداية ذلك

بحركة الإصلاح الديني، التي قادها "مارتن لوثر"ضد الكنيسة، وما وصلت إليه من تدهور، بسبب القائمين عليها.

د)- أمّا الحركة الرابعة التي كان لها بالغ الأثر، في توجيه الفكر الأوروبي الحديث، فهي ولا شك، عقلنة الفكر العلمي:حيث "بدأت هذه العقلية –بالدفاع عن العلوم العربية واليونانية، من قبل علماء وفلاسفة أخذوا على عاتقهم محاربة التقاليد الكنسية، معتمدين على الشرق بقطبيه اليوناني والعربي"([4])، وبدأ بذلك حقل السيطرة على الطبيعة يتوسع إلى أقصى حده.

---

[1]) أحسن بشاني: خطاب الحداثة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية،أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة،إشراف :الأستاذ الدكتور :عبد الرحمان بوقاف،قسم الفلسفة، جامعة الجزائر ،2006،2005.

[2]) فارح مسرحي،مرجع سابق،ص 44

[3])فتحي التريكي ،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة، مرجع سابق،ص31

[4]) المرجع نفسه،ص 29

تلك هي إذن مقومات الحداثة الغربية، في نظر التريكي، وهي وكما هو ملاحظ لا تختلف كثيرا عن المحددات التي يتفق حولها الكثير من المفكرين، وإن اختلوا في تقديم هذا العنصر أو ذاك. لكن التريكي سوف يضيف جملة من العوامل– الثوابت– التي تقترن بالحداثة في نمط تكوينها، وفي نمط عملها، وذلك في جميع المستويات. وهي ما ساعد–في نظره– الغرب ليهيمن على العالم. تتمثل هذه الثوابت في:

1)–إرادة المعرفة: "وتعني الجرأة على اقتحام كل الميادين، ففي عصر النهضة الأوروبي، اقتحمت إرادة المعرفة، شيأ فشيأ مؤسسات المجتمع وآلياته المختلفة، من كنيسة وسوق ومدارس وغيرها، كما اقتحمت العالم الفيزيولوجي والسيكولوجي للإنسان.

2)–إرادة التغيير:"تتمثل في تكريس المعارف المكتسبة، نحو تغير الواقع، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. تغييرا يتماشى ومتطلبات الحداثة.

3)–إرادة الهيمنة: يرى فتحي التريكي أن "المعرفة التي توسعت رقعتها في عصر النهضة، نتيجة لعمليات الترجمة، واستجابة لمتطلبات التحولات التقنية والاقتصادية، لم تفرز فقط إدارة التغير، بل طورت القدرة على التدخل في المجالات الطبيعة للهيمنة عليها وامتلاكها، فالغرب بداية من نهضته الأولى في أواخر العصور الوسطى، بدأ يتحرك ليهمن على العالم" ([1]).

– الحداثة العربية بين السياق الإجرائي و الصعوبات التطبيقية:

لقد كان الاتصال بين الشرق والغرب، بداية لعمليات من القلق والمعاناة، قلق عبر عنه قاسم أمين قائلا: " كل من تعلم من المصريين وساعده الحظ على أن يتعرف على أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها، إن الأمة المصرية دخلت اليوم في دور خطير، بل في أخطر دور من تاريخها، فلم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر، مثل هذا الزمن.فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المعمورة"([2]).

لقد أدرك قاسم أمين خطورة المرحلة التي تمر بها مصر آنذاك، وأيقن أنه" لا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء، إلا طريق واحد لامندوحة عنها، وهي أن تستعد الأمة لهذا النضال وتأخذ له أهبتها"([3])، بغية تجاوز عصر الركود، الذي ساد العالم الإسلامي، منذ بداية العصر المملوكي سنة 1250هـ.

لقد انتقلت أفكار عصر النهضة، والتنوير وفكر الحداثة، إلى الفكر العربي، عبر العديد من الوسائط، لعل أهمها البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي وعلي باك إلى أوروبا، دون أن ننسى الدور

---

[1]) المرجع نفسه،ص 21

[2])أمين قاسم، تحرير المرأة، سلسلة الأنيس موفم للنشر،الجزائر (ب.ط)،1988،ص108

[3])المرجع نفسه،ص105

الذي لعبه الاستعمار الأوروبي في العالم العربي، في نقل هذه الأفكار– ليس من أجل تنوير الشعوب المستعمرة، ولكن في أسلوب معيشته ومؤسساته– في ظل هذه المجابهة بين الشرق والغرب، بدأت تتوالى الأسئلة من مختلف المواقع، حول أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه !.

في إطار الأسئلة المطروحة والإجابة عنها، ظهر تباين في أراء المفكرين العرب، إزاء الثقافة الوافدة عموما، وحول سبل الخروج من حالة التخلف، على وجه الخصوص، وانقسموا إلى تيارات تنوعت ما بين علمانية وإصلاحية وتحريرية وسلفية، وليبرالية.عالجت المشكلة من هذه الوجهة أول تلك، ولكن

دون أن تصل لحل جذري، بل نستطيع القول، إن الفكر العربي مازال يعيش الأزمة ويتخبط في نفس دائرة الأسئلة التي عالجها سابقوه، ومن هنا نتساءل هل فشل مشروع الحداثة العربية؟

-التريكي ومعالم المشروع الحداثي العربي:

-أ) تشخيص أزمة الفكر العربي:

يرى فتحي التريكي، أن الحداثة العربية لم تفشل، لسبب بسيط وهو أن العالم العربي الإسلامي لم يدخل بصفة نهائية عصر الحداثة، حتى نحكم علية بالنجاح أو الفشل، فـ" نحن مازلنا في عصر التحرر، ولم ندخل بعد وبصفة نهائية عصر الحداثة. فالفكر العربي الإسلامي، مازال يحصر نفسه بعد ما يزيد عن قرن ونصف في المسألية نفسها التي يعيشها كمعضلة، وهي مشكلة التراث والحداثة، أو الهوية والتفتح، ومازال يعيد صياغتها لمرات عديدة، محاولا كل مرة إيجاد سبل التوفيق بين مقومات الأنا، والنفوذ المباشر للآخر" ([1]).

يعيش الفكر في الوطن العربي–فيما يرى التريكي– أزمة متعددة المظاهر:

فعلى المستوى الفكري، عجز هذا الفكر عن تجاوز مفاهيم وقضايا كانت شائعة في أوائل القرن العشرين، كقضية الهوية والحداثة، رغم أن هذه القضية طرحت في ملابسات مختلفة، أي في خضم النضالات المتواصلة من أجل التحرر.هكذا أصبح " الصراع بين التراث والحداثة صراعا مغلوطاً، لأن التراث في حد ذاته، يستوجب التغير والتجديد والحركة، حتى يكون تراثا يميز شعب عن غيره، ولا يبقى طي النسيان، ولا يدخل حركية التاريخ، أي حركية تأسيس الذات وصيرورتها .من هنا يرى التركي أنه لا سبيل للخروج من هذا المأزق، إلاّ من خلال "إعادة النظر في معنى الهوية العربية، التي لم تعد بالضرورة تفيد الثبات في الذات، والعودة إلى التراث القديم لتوضيح امتيازات العرب بالنسبة إلى الغير.وبالأحرى لا تنفي مقولة الهوية العربية فكرة الحداثة، والحداثة لا تفيد شيئا آخر غير الحضور للذات"([2]).

والنتيجة الحاصلة أن الفكر العربي مدعوا– في نظر التريكي– لتجديد مفاهيمه، حتى تكون ناجعة وواضحة، لفهم أزمة التفكير والوعي في الوطن العربي، وأول خطوة على الطريق تكمن في تجاوز جدل

---

[1]) فتحي التريكي ،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة، مرجع سابق،ص27

19)المرجع نفسه،ص 33

الهوية والحداثة، أو"الأصالة ""والتفتح" لأنها مفاهيم نحيلة، تندرج في جهاز التفكير الأيديولوجي والممارسات السياسية، ولكنها غير مجدية على الصعيد العلمي والفلسفي"([1]).

أما على المستوى السياسي، فأزمة الفكر العربي يرجعها التركي إلي عاملين: فعلى المستوى الفكري، تعود أزمة الفكر العربي إلى كونه "بني أساسا على مجموعة من الخيبات المتتالية، التي صنعت مصيره وجعلت المفكر العربي يكرس اهتماماته، في تفكيره وبحثه عن الذات العربية، على تفسير الثورات والنكبات والنكسات والهزائم([2]). فالفكر السياسي العربي، مازال يتمحور أساسا حول محور هذا الشعور بالقلق، أمام شلل المشروعات المستقبلية للوحدة العربية. الواقع الذي أثرّ على دور المثقف العربي، وجعله في كثير من الأحيان، يُقدم على معالجة مشاكله، معالجة تنم عن الشعور باليأس والقنوط، وإحساس بالإحباط.

أما على مستوى الممارسة السياسية، فأزمة الفكر مردها للممارسات الاستبدادية للأجهزة المختلفة في البلدان العربية، والتي تعامل الفرد من خلال جدلية الرقابة والعقاب، وتحاول إخضاعه للسلطة بالقوة القاتلة، أي بتهديده في جسده وحياته العامة والخاصة، فتكون السلطة العنيفة عنصر استبداد بالنسبة إلى الفرد، وبالنسبة إلى المجتمع على حد سواء([3]).

لهذا يرى التريكي، أنه لا يمكن الحديث عن فكرة نهضة عربية، ما لم نعيد صياغة المفاهيم والتصورات اللازمة لإعادة بناء نهضة عربية جديدة، تقوم على مكتسبات فلسفة النهضة، وتطوير مرتكزات انتماءاتنا الحضارية، وعلى رأس هذه المفاهيم، مفهوم المعقولية العربية الحالية.

ب)- تفكيك المعقولية العربية شرط لحداثة عربية ناجحة:

تتميز المعقولية العربية الحديثة في نظر فتحي التريكي، بجملة من الخصائص تحول دون تحقيق حداثة ناجحة، ومن جملة هذه الخصائص أنها:.

أ)- انتقائية: فالمعقولية العربية" كما تتوظف اليوم في المجالات الحياتية العامة، يلاحظ من أول وهلة شرخا عميقا يسكنها، فمن ناحية تتقبل هذه المعقولية كل ما يرد عليها من تكنولوجيات، وترفض في الآن كل ما يجعل هذه التكنولوجيا ممكنة، ونعني بذلك مظاهر الحداثة ومستتبعاتها.

ب)- سلفية:لأنها "تبقى دائما متأصلة في السلف، بينما تحاول استيعاب نتائج العلوم والتكنولوجيا، فتكون بذلك مستهلكة، غير مبدعة في هذا الشأن، بل غير قادرة على الحضور في العالم، فالوعي السلفي الذي يسود اليوم في المعقولية العربية، وعي مغلق ومتحجر، يقوم على عبادة الأسلاف، ويرفض كل إبداع وكل تفكير عقلي مشفوع ببرهان([4]).

---

20 المرجع نفسه،ص 33

21)المرجع نفسه،ص 35

[3]) المرجع نفسه،ص 36

[4]) فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق،ص148

ج)– نقلية:لأنها لم تستطع إلى يومنا هذا "أن تقفز قفزة نوعية، نحو مرحلة النقد العلمي والجذري الحقيقي لأنها مازلت تحث وطأة المحرمات والمنوعات والمحجّرات بأنواعها المختلفة، على الصعيد السياسي وعلى الصعيدين الديني والاجتماعي، "فمعقوليتنا مازلت تحت وطأة التكفير والتحريم والمنع الاستبداد، والسحر والشعوذة والخرافة، والتقديس والانفعالية والغريزية والشعارات، والإحكام المسبقة([1]).

لهذا يرى الأستاذ التريكي أن المشروع الحداثي العربي، لا يمكن أن يكتب له النجاح ما لم يقترن ب:1)–الرجوع إلى معقولية التفكير: فالعقل هو مفتاح الحداثة، والمعقولية هي سبيل التحديث، فلن ندخل عصر الحداثة إذا لم نبن تفكيرنا على العقل وحده، " فرغم انزلا قات العقل في أشكال الهيمنة والغطرسة، يبقى العقل ركيزة أساسية للديمقراطية، لأن العقل دعامة للحريات والمسؤوليات، وركيزة لمجتمع القانون والحقوق. دون أن يعني ذلك في نظر التريكي التخلي عن هويتنا والانصهار في الآخر. لأن المعقولية في

جوهرها "لا يفيد بالمرة نسيان الهوية وانحلالها في الآخر، كما لا يفيد انقراض مراجعنا الفكرية والدينية ،بل يفيد تحرر الفكر من المرجعية الماضوية الضيقة، ومن هنا يصبح التثبت بالأصالة والعودة إلى الماضي عامل غير كافي لتحقيق الهدف، فإثبات هويتنا لا يكون بتأصل كياننا فقط ، بل وأيضا بتحديثه، وجعله قابلا للتأقلم مع أنماط الحياة الجديدة، "فالحداثة تصبح إذن تأصيلا لكياننا وعنصر هاما لتحديد هويتنا، بجانب العنصر التراثي، الذي يزيد تحضرا وتمسكا بكياننا وانفتاحا على الحضارات التي تحاذينا ، وهكذا تكون الهوية حلقة وصل معقدة، تربط حضور الوجود في العالم بما فيه، وتفتح أمامه باب المستقبل"([2]).

2)– الإيمان بأن الحداثة ليست منتج غربي خالص:لأن"عملية التحديث لا ترتبط–حسب التريكي– بمركزية الغرب ومشاريعها الاستعمارية بصفة عضوية وكاملة، فالغرب رغم نجاحه في تركيز الحداثة على مركزيته، لم يكن وحده في تأسيس أركان الحداثة، بل استفاد من منتجات الحضارات الأخرى بما فيها الحضارة العربية الإسلامية، فعلاوة على التفاعل الحضاري بين الغرب وبقية الشعوب المتحضرة في عصور النهضة، "لابد من الانتباه إلى أن قنوات الاتصال العلمي والفكري بين الغرب والإسلام، في القرن الثاني عشر، قد ساهمت بصفة مباشرة في عملية دحض التقاليد الكنسية، بالاعتماد على العقل والتجربة. من هنا تصبح الحداثة تعبير عن " نقطة استكمال الدورة الجدلية للتفاعل الحضاري، بين الشعوب والأمم، وهي حركية دائمة تستبدل القديم بالجديد، وذلك بالاعتماد على المنجزات العلمية والتقنية والثقافية في جميع الحضارات بدون استثناء"([3]).

---

[1]) المرجع نفسه،ص 147

[2]) فتحي التريكي ،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة، مرجع سابق،ص27

[3]) المرجع نفسه،ص 28

لهذا يرى فتحي التريكي"أن الحداثة جديرة بأن تكون القضية الأم للعالم العربي حاليا، لأنها عقلنة وتحرر، وانفصال عن التعصب والجهل .انفصال عن التقليد والنقل، والهيمنة على الذات والهوية والابتعاد بها عن الماضوية الضيقة. فتحديث نمط عيشنا وتفكيرنا، هو تأصيل لكياننا، لأننا كنّا من الذين قدموا للعقل مقوماته، وهو انفتاح لحضورنا، لأننا نريد من حاضرنا أن يكون دعوة للمستقبل، ولا عودة للماضي"([1]).

3)- إصلاح علاقتنا بالآخر: فالآخر مفهوم ينتسب إلى المتحدث في الهنا والآن.ونعني بالغير الإنسان الأخر الذي هو إنسان مثلي، له نفس الحقوق، ووجوده يساوي وجودي انطولوجيا وأخلاقيا وقانونيا ولكنه يختلف عني، في نمط وجوده وحياته. يعني ذلك أن "الإنسان الغير" ليس فقط غير أنا، بل هو أنا آخر، أنا الغير، هو الأنا الذي يختلف عن ذاتيتي، وهو موجود مثلي في عالمنا المشترك، له حضور كأنا آخر، سواء كان في علاقة معي أو كان منفصلا كل انفصال عني. ([2]).

ومهما يكن من أمر، فإن الوجود في العالم يمكن أن يأخذ صبغة عنيفة، كالحروب والإجرام وكل وسائل العنف المادي والمعنوي، يمكن أن تأخذ الغيرية صبغة متسالمة، تضمن علاقاتها مبادئ الحقوق والاحترام والتعقل، فتكون عندئذ علاقتي بالآخر علاقة محبة وتآنس. لهذا يرى التريكي، أنه يجب تغليب مبدأ التسامح، لأنه "دعامة الممارسة الديمقراطية، وهو موقف سياسي ضد كل تعصب وانغلاق في العلوم ،والأديان والسياسة والأخلاق، انطلاقا من إنسانية الإنسان. وينفي بناء على ذلك تصور وجود نظرية تقدمية دون الأخذ بعين الاعتبار للغيرية، من حيث هي ضرورة حياتية، والعمل على أن تأخذ هذه الغيرية صبغة تسالم، وذلك بالمزيد من التحكم في ذاتيتنا وأخلاقياتنا، وأنماط عيشنا ومجرى وتفكيرنا.([3])

لهذا نجده- التريكي- يدعو لمواجهة كل الإيديولوجيات الإقصائية، سواء تعلق الأمر بتلك التي تدعو إلى إقرار نماذج اجتماعية متصلة بالماضي، وبدون أي اعتبار لحركية الثبات للذات والتغيرية في التاريخ. أو تلك التي تحاول فرض نموج وحدوي ضيّق، التي يبرر قهر الأقليات والفرد، وتبرير القهر والاستبداد من خلال إقرار فرضية التنوع والاختلاف، لأن الوحدة العربية- يؤكد التريكي- لا يمكن لها أن تنجح إلا إذا أخذت بعين الاعتبار خصوصيات شعوبها، من خلال إقرار الحق في الاختلاف والتحرر.([4])

إن معقولية التنوع ترفض الفكر الوحدوي، المبني على الهيمنة والغطرسة والاستبداد، لأن فلسفة التنوع هي فلسفة الحرية، والنضال ضد القمع بكل أشكاله وأنواعه، وهي تشهير بنمو القمع والقهر، وبنمو الاستغلال وخراب العقل، وإقرار الحريات الفردية والأقليات السياسية والمذاهب الدينية وتواجد الأديان،

---

[1]) المرجع نفسه،ص 32

[2]) فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق،ص153

[3]) المرجع نفسه،ص 156

[4]) فتحي التريكي ،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة، مرجع سابق،ص38

وبهذا يمكن آليا محاربة الإيديولوجية الامبريالية والصهيونية، التي ترتب لاقتسام الوطن العربي وتجزئته اجتماعيا وسياسيا، واستغلال التناقضات القائمة أو الكامنة بين الطوائف والأقليات .

4)- تحرير فكرة التقدم من إطارها الإيديولوجي:

ارتبطت نظرية التقدم بروح التفاؤل، التي خلفتها الكشوف العلمية المختلفة، وانتصار النظرة العقلانية، وتوّسع مجال الكفاح من أجل الحريات السياسية والدينية، وبتراجع فكرة العناية الإلهية أمام فكرة القوانين الطبيعية الثابتة .فبهذه الروح المتفائلة ازداد وعي إنسان القرن الثامن عشر بذاته، كذات صانعة للتاريخ، وبوعيه بتاريخيته .ووعيه بتاريخيته هو، في الوقت نفسه، وعيه بحداثته .ذلك أن وعيه بتاريخيته يعني وعيه بأنه يمثل مرحلة أرقى من كل مراحل التاريخ البشري السابقة، أي وعيه بتقدمه تاريخيا.

من هنا يرى فتحي التريكي أنه يجب تخليص فررة التقدم من ارتباطاتها الايديولوجية، لأن" فكرة التقدم إذا حصرناها داخل تصورات استعمارية، فإنها ستكون غير مجدية لمعالجة وضعنا الحالي.أما إذا حررناها من سيطرة الفكر الحداثوي، وجعلناها محركا لتحديث كل جوانب المجتمع والثقافة، فإننا سنستطيع بكل جرأة وشجاعة، أن نبني مقومات فكر تقدمي، يقوم على إنتاج الحقائق العلمية، ويفتح المجال للفرد أن يختار نمط حياته، ليثبت انتمائه ومدنيته بحرية وتعقل، واحترام للغير والعيش سويا.([1])

5)-تصور إستراتجية ممكنه للخروج من أزمة الوعي العربي: والمتمثلة في البحث في الذاكرة التاريخية و الممارسات اليومية عن مقومات الخطاب الديمقراطي المفتوح، المبني على:

- تمدين الحياة الاجتماعية: التي مازالت في مجتمعاتنا العربية، تحت رحمة السياسي الذي يقمع المدني، مرتكزا على شبكة هائلة من الاقصاءات المتعددة، بحيث سيكون "الإنسان السّوّي المصطنع الذي قد تمت تسويته وصناعته داخل الأسرة وفي المدارس، وتحث وطأة الإيديولوجية الرسمية، هو مواطن الوحيد الممكن بالنسبة إليها، بحيث سيكون حق الاختلاف والتعارض غير ممكن، وغير محبذ بالمرة في هذه المجتمعات السياسية([2]). وينجرّ عن هذه الفكرة رفض "المشروعية التي تعتمد الخلط بين الدنيوي والمقدس تضفي حتما على ممارسة السلطة نوعا من الحرمة والقداسة، باسمهما يشّرّعْ الأمير وينفذ قراراته، وينزلق بالحكم إلى القهر والاستبداد.([3])

لهذا يرى فتحي التريكي أنه لا مجال للحديث عن فكر التقدم، ما لم يبرز "المدني " ويكسب شرعيته المطلقة على المجتمع، ويسود مبدأ الحرية في كل شيء، في الدين والأدب والفكر والصناعة والتجارة والأعمال والخدمات والسياسة والمجتمع .

---

[1]) فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق ،ص 159

[2]) المرجع نفسه،ص 150

[3]) فتحي التريكي،رشيدة التريكي،فلسفة الحداثة، مرجع سابق ،ص 72

–تعقيلية الحياة الاجتماعية: وهنا يعود التريكي للإستئناس بأعمال الفارابي "عندما ربط بين النظر والعمل في تصوره للعقل. فالتعقل هو فضيلة من فضائل العقل العملي، وهو "القدرة على جودة الروية واستنباط الأشياء، التي هي أجود وأصلح، فيها يعمل ليحصل بها الإنسان خير عظيما، لذلك يجب أن تكون التعقليّة متجذرة في حياتنا اليومية، وفي معاملاتنا المختلفة على كل مستويات، وما من شك أن تقلص العقل في المجتمعات، يؤدي حتما بحسب الفارابي إلى سيطرة الدهاء والمكر".([1])

هذه هي معالم المشروع الحداثي التي نظّر لها الدكتور فتحي التريكي فهل نجحت الآليات المقترحة في توطين فكر الحداثة في وطننا العربي؟

هـ)–خلاصة:

إن التجربة الحداثية الغربية، بوصفها تجربة إنسانية عينية تاريخية، لا يمكن إعادة إنتاجها، تاريخيا، كتجربة جاهزة مهما كانت محاولات استلهام مفهومها العام العيني التاريخي–لأن الحداثة ليست مجرد حقبة تاريخية فقط، بل هي أيضا مجموعة قيم – ومهما كانت إرادة تمثله، وأن ما يمكن استلهامه من هذه التجربة الحداثية الإنسانية، بوصفها تجربة عينية تاريخية– وهذه هي مهمة المفكر العربي الكبرى، التي تطرحها عليه قضية الحداثة العربية– هو إبداع تصور لمفهوم الحداثة؛ تصور تفرضه مكتسبات العقل الإنساني وحقائقه النظرية من جهة، وشروط واقعنا التاريخي ومعطياته الحضارية والثقافية والروحية الخاصة من جهة أخرى؛ تصور مبني على منطق الإيمان بالاختلاف الفكري داخل وحدة العقل، وبالتنوع الحضاري والثقافي والروحي داخل كلية التاريخ، وبجدل الخاص والكوني في تطور المجتمع الإنساني.

إلا .ومع أن الحداثة هي في ذاتها، قيمة تستمد معناها من ذاتها؛ ولذلك فإن أبرز المشكلات التي تتصل بها كمفهوم، وبتعريفها، وفهمها، تكمن في علاقتها بالزمان وبالحقبة التاريخية التي تتجلى فيها وبالتاريخ الذي تتموضع فيه ([2])

إن عملية التفاعل الحضاري، التي تمت بين الفكر العربي والقيم الغربية الحديثة، أو بين الثقافة الغربية المهيمنة والثقافة المحلية المستتبعة، عملية أدت إلى حالة من القطيعة مع الذات، وإلحاق هذه الذات الثقافية بالآخر المهيمن، في نوع من علاقة السيد بالعبد والتابع بالمتبوع، ذلك أن هذا الاتصال

) المرجع نفسه،ص 152 [1]

34) أحسن بشاني: خطاب الحداثة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية،أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة،إشراف :الأستاذ الدكتور :عبد الرحمان بوقاف،قسم الفلسفة، جامعة الجزائر ،2006،2005.

لم يكن قائمًا على أساس من التفاعل الثقافي بين متكافئيْن، بالمعنى النفسي والمعرفي، وإنما على أساس من التلقي والتبني والانقياد، الذي يبديه المغلوب اتجاه الغالب، تصديقا لمقولة ابن خلدون في مقدمته، عن ولع النفس بالانقياد للغالب واعتقادها الكمال فيه.

لقد كانت قضية المفكرين العرب، منذ منتصف القرن التاسع عشر، هي اللحاق بالغرب، بينما كانت قضية المفكرين الأوربيين تكمن، في تحرير البرجوازية من أغلال الإقطاع. وإذ رأى جيل الرواد العرب أن النهضة التكنولوجية والصناعية في أوربا، قد اقترنت برفع شعارات التنوير وحمل لواء الحرية والتسامح والعلم والعقلانية.فقد اعتقدوا أن لحاق العرب بالغرب، يتطلب اعتناق الأفكار نفسها، وكما أن الدعوة إلى هذه الأفكار في أوربا، كانت تجري بلا قيد أو شرط، فالمطلوب هو مثل هذا عندنا أيضًا! وهنا

مكمن الخلل الذي تفرعت عنه إساءات بالغة لقضية الحداثة نفسها! فبادئ ذي بدء، صار النموذج الغربي هو المثال، بل صار التحيز للغرب سمة لمداخلات المفكرين العرب الأوائل، وأدت عملية النقل دون مراعاة لتراث وتقاليد الواقع العربي، إلى نوع من الصدام مع هذا الواقع، والصدمة لكثير من أبنائه، فالمفكرون العرب الروّاد – معظمهم– عَادَوْا ما عاداه التنويريون البرجوازيون في الغرب، وصادقوا ما صادقوه، عادوا الدين أو استهانوا به، بينما لم يكن هذا ضروريًا بالمرة لتنويرنا وحداثتنا، وتقدمنا السياسي والتكنولوجي أو العلمي، كما تبنوا مبادئ الفردية الغربية كمعيار لقياس الرفاهية، بينما لم يكن هذا بدوره ملائما للواقع العربي، المتجذّرة فيه قيم العائلة والقبيلة.

إن مفردة الحداثة، شأنها شأن المفردات الوافدة على ثقافتنا، فقدت بريقها منذ البداية، لأنها صارت تقليدا ضارا، جعل من الغرب المرجع والمحرار، الذي تقاس به حرارة محرك قطار الحداثة، ولم يجعل من الحداثة تطبيقا إبداعيا–لا تطبيقا اتباعيا –يبدع ويعمم إبداعاته على جميع المستويات، السياسية والثقافية والتربوية، وإن الهدف المنشود يجب أن يكون متمحورا حول قيام مجتمع متنور، إلى جانب المجتمع المتقدم، وقادر على التفاعل معه.